العدد الثالث
آذار (مارس) ١٩٥٤
السنة الثانية

No. 3 - Mars 1954
2ème Année

الآداب

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر
تصدر عن دار العلم للملايين - بيروت

ص.ب ١٠٨٥ – تلفون ٢٣ / ٠١

AL-ĀDĀB : *REVUE MENSUELLE CULTURELLE*
BEYROUTH - LIBAN B.P. 1085
Tél. : 23 - 01

أصحاب الامتياز
منير البعلبكي - سهيل ادريس - بهيج عثمان

المدير المسؤول : بهيج عثمان
رئيس التحرير : الدكتور سهيل ادريس

Directeur : BAHIJ OSMAN
Rédacteur en chef : SOUHEIL IDRISS

في الحس الوطني

بقلم : عبدالله العلايلي

كانت هناك أزمان شاعرية يلذ للمرء في تناولها ، ان ينتصت الى نغمها المنسجم المطمئن ، وان يستروح عبيرها الفواح ، وان يستسلم لموسيقاها الحانية تحمله الى آفـــاق يعجز عن تصويرها اللسان : حيث لا تعود الدنيا الا انشودة عذبة .. اما حاضرنا الذي نواجهه فليس شيئاً من هذا في قليل او كثير ، فقد جهل الجرسَ والايقاع ولم يشعر بقوة ما فيه من سحر . انه انكشف دفعة واحدة عن الاماني والرغبات التي تجيش في الأرواح القلقة ، واطلع بذور الفوضى بمواجهته اخطاء المدنية وجرائمها .

انه فترة شاقة ولكنها دسمة مع ذلك ، تتميز بجمالها الخاص ، ففيها نتتبع مسير الحركات الواسعة النطاق ، ونشهد الكتل من الافكار التي تتفرق لتتجمع من جديد طبقاً لقوانين واصول مستحدثة ، ونرى اخواننا من بني الانسان هنا وهناك يتلمسون في شجاعة سبيلهم نحو المصير المجهول ، دون ان تتثبط لهم همة ، او ان يستسلموا لعائق .. نعم ان في عنادهم واستبسالهم لشيئاً من الجلال المستهوي .

ثم هي ، اي هذه الفترة ، تجربة عميقة نبيلة تهيأ لها ان تحمل الكائن من الثبـــات الى الحركة ، فبعد ان كانت امنية الاعصر الكلاسيكية اجتناب كل تغيير من شأنه ان يخل بالتوازن النفسي القائم ، اعني هـذا الشيء الذي عبر عنه سنكا بقوله « ان اول دليل على اتزان العقل قدرته على التوقف وانطوائه على نفسه .. وان بؤس الناس مرده الى سبب واحد هو انهم لا يستطيعون الاستقرار في غرفة » .. اقول بعد ان كانت امنية تلك الاعصر الثبات ، غدا طابع هذه الفترة الحركة ، فقد فسخ الكائن الحاضر تلك الهدنة السعيدة التي كانت تسمح بالنشاط والعمل في هدوء واطمئنان ، واطلق عنان الحرية لرغباته ولابسته روح الظعن والارتحال .

على ان هذه الفترة بالنسبة لنا هي لحظة ازمة وتقرير ، فامامنا في العالم العربي عدة قرارات حاسمة ، فهناك القرار السياسي الذي يجابهنا جميعاً وعليه يتوقف مصيرنا السياسي ، وهناك ايضاً القرار الاجتماعي ، واعني كيفية تنظيم الحياة من جديد في مجتمع افضل ، وثمت القرار الاقتصادي ومن فوقـه القرار الثقافي الذي يعين نوع الثقافة التي نريد اشاعتها في البلاد وتوطيد صلتها بالثقافـــة الاصيلة ، ولكن قبل كل هذه القرارات يوجد قرار هو شرطها جميعاً ، وهذا القرار الاساسي هو حرية الفكر اي حرية الانتقال من الثبات الى الحركة التي تحمل تجربتها الضارية هذه الفترة الهائلة .

وحرية الفكر التي اعنيها تنزل من موضوعي « الحس الوطني » منزلة القاعدة ؛ وهي ليست شيئاً نُمنحه بالفطرة أو بالغـريزة كما هي ليست من مكاسبها ، فرجل الفطرة لا يحس بشأنها ولا يشعر بعملها لانه عبد لغرائزه وخرافاته ، عبـــد لخياله الجامح اللامحدود ، ثم هو عبد للطبيعة القاسية المحيطة به .

إن الانسان يكسب حريته كسباً ، وذلك بقدر ما يرث احرارَ الفكر في التاريخ ، اما الكائن الواقع خـارج التراث العقلي الاصيل فلا امل له قط بتلك اللحظة الحرة التي يرى فيها عين الحق فيصبح انساناً متعالياً .. من ابطـال الفكر الحـر الذين جاهدوا وماتوا في سبيل الحقيقـة والحرية نستروح ذلك العبق الأقدس .

إذن فأول ما يجب ان يؤكـد عليه في العالم العربي هو فتح جميع معابر الوجود امام العقل بحرية تامة . وان شيئاً من هذا لن يتم إلا إذا تبنينا تراث الحرية ودمجناه في كياننا كي نغدو

معه وحدة لا تتجزأ .

غير ان الفكر المسؤول في العالم العربي يعرف حق المعرفة انه لم ينتصر بعد في معركة حرية الفكر ، بل لم يثر بعد هذه المشكلة كما ينبغي لها ان تثار .. يعرف ان الفطرية والغوغائية والنفعية والظلامية والانفصالية ، كل هذه تضغط عليه ضغطاً يكاد يخنقه ولكنه يعرف في الوقت نفسه ان الفكر الحر وحده هو الذي يقدر ان يبني كياننا العتيد على اساس ثابت لا يتزعزع .. نعم ، ما لم يُعترف بهذه الحرية بجميع متضمناتها في نظرتنا الاخيرة الى الاشياء لن نتمكن من ابداع كيان اصيل ، فشرط الكيان حرية البناء وحرية الصيرورة .. اما إذا ظل النشدان الحر مقيداً ، والاعلان الصريح ممنوعاً ، والتغيير الكياني المخلص محرماً ، فستظل انسانيتنا محرومة من أقدس مقوماتها وأكثرها ايجابية وفعلاً .

ومن هذه النقطة ننفذ الى موضوع حسنا الوطني إزاء الاحداث ، وفعله في سياقها ومآلها ، ثم قيمته ، وهل يملك حقاً طاقة التغيير والفعل .

في العلم اليوم بديهية تقطع بانه لا نوعية [1] اجتماعية اليوم. فقد تراخت حواجز المجتمعات وتداعت تداعياً يكون من الخطأ اتخاذها قاعدة لأي وضع اجتماعي .

فإن اتصال اسباب العمران والثقافة والتشابك المصلحي والآلية ، أوجدت كلها وحدات عامة ومكيفات عامة، تخطت الحواجز الوسطية القائمة وتجاهلتها في حركة تموجها السريعة الشاملة .. فنشأ عن هذا حالة تداخل اجتماعي آخذة بالمد ، وغدا كل مجتمع يحتضن مثلاً ما يحتضن المجتمع الآخر .

إذن فالمحيط كعامل اجتماعي في حاضر البشرية ومستقبلها بدون تمييز اصبح لاغياً ، وإن كانت لا تزال له الصفة الجغرافية والسياسية ، وبقاء هذه الصفة لا يجعل له عملاً اجتماعياً إلا في قدر واحد محدود .

على ان الرواسب النفسية التي أوقرت الاجيال احمالها بتأثير المحيط ، وكانت تقوم في الكائن بحركات جذرية عنيفة ، قد طفت بتأثير الصفة العقلية الجديدة التي تلبست الجماعات حتى ليخيل للمراقب ان البشرية عامة في دور تحول خالص وتجديد محض .

وبذلك اضحت الرواسب طفاوة تعلو سطح النفس وهي دائمة التقلقل والاضطراب ، فلم تعد كما كانت تحرك الكائن وتستبد به ، بل غدت تتحرك تابعة لمحرك الكائن الجديد .. وهذا نذير بان البشرية تتشبث باسباب طور جديد ، وهذه الحميات والازمات في كل مكان دليل على الاستعداد بل الهجرة فعلاً.

وهذه الحقيقة البادية تضعنا وجهاً لوجه امام اعتبارات :

١ — لا نوعية اجتماعية ثابتة .

٢ — لا اثر للمحيط القومي في الاجتماع .

٣ — لا اثر للرواسب النفسية في طور العقل من اطوار البشرية السائرة .

وهذه المنفيات جميعها تنتهي بنا انتهاء عفوياً الى تقرير وحدة الاجتماع كنظرية اولية في كل تنظيم وطني ، ويتفرع عنها ان التيارات التي تتصل بمجتمع ما تؤثر حتى في أي مجتمع آخر .

وحيث ثبت ان الاشتراك الاجتماعي حل محل التنوع الاجتماعي ، وتمددت في كل مجتمع العوامل نفسها في المجتمع الآخر ، فلم يعد بد من تجاوب المجتمعات ، ولم يعد هناك من قوة تحول دون عدوى الفكر وعدوى الشعور على اشدهما شدة ، فبات لزاماً علينا ان نشخص الآفات العامة قبل اعطاء اية فكرة في الوضع الوطني .

ولعل أهم التيارات العامة هي :

١ — صراع الفردية والجماعية .

٢ — الخضوع لأفكار رجعية بفاعلية الانتخاب الصناعي .

صراع الفردية والجماعية

كان احساس الجماعة بشخصيتها ومكوناتها حدثاً مهماً في تاريخ البشر ، يعدل في القيمة احساس الفرد بشخصيته .. وهذان الاحساسان لم يصطلحا بحيث يكون احدهما مقدمة للآخر بل دخلا في صراع لم يزل يجر الكائن الى ميدانه ، ولم تزل معركة التناحر بينهما قائمة .

نعم كان احساس الجماعة بشخصيتها او ظهور هذه الشخصية حدثاً مهماً في تاريخ التطور البشري ، لأنه اقتضى نقض كل الاوضاع القائمة على غير قاعدتها .

والاحساس بشخصية الجماعة جدير بهبة الفكر المزود بها الانسان ، والا فالفرد بقطع النظر ليس خليقاً بهذا الفكر غير المحدود، ومطالبه لا تقتضيه ان يكون لهذا النوع من التعقل .

(١) انظر التفصيل في محاضرتنا « نظرية المحيط » في مجموعة محاضرات الندوة عدد ٩ سنة ١٩٥٠ .

فالفكر الانساني يفرض الجماعة ان لم تكن، لان اسلوب حركته يتجه الى دائرة اوسع من حدوده الشخصية .

وحيال هذا الصراع تلزمنا وقفة نطرح فيها كل افكار قبلية، ونتجرد معها من اية عوائق ومعطيات سابقة .

فأنا اعتقد بان الفرد يدين بالفكر بـــل باحساسه بوجوده وفرديته للجماعة، فنحن نعرف ان انعكاس الصوت يجدده ويوضحه ويضيف الى ذبذباته قدرة لم تكن لها .. فالمقابل المحدث لهـذا الانعكاس هو انت الواقع بازاء انا ، ولولا هذا المقابل الجماعي لظل الأنا ضميراً غير ذي دلالة ولا معطيات وغير ذي بواعث تقوده الى نفسه ، الى الحس بوجوده .

واعتقد ايضاً الى كل فكرة عنصرها الاولي المنبهم مايجيش بـه شعور الجماعة الذي يسبق فكرة الفرد في سرعة الاحساس ويكون ما وقع في دائرة هذا الشعور ملهماً الفرد وموقظاً له على رأي ما .. والا فشعوره مغلق من شدة الانبهام وفكره اكثر اغلاقاً ، وهو انما يرهف شعوراً اذا انغمر في التجمع ، وبذلك يصبح فكراً اكثر يقظة واكثر ابداعاً وخلقاً .

لذلك نرى حيث لاتوجد جماعة بالمعنى المفهوم من هذا اللفظ، يضمحل الفكر الفردي وتتطامن مقدراته كما هو المشاهد عنـد البدائيين والبداة .

وعليه فالتنادي بجعل الفرد نقطة الابتداء وهم سخيف وعقيم.. ان المصلحين في القـــديم ارادوا اصلاح المجتمع الفردي بالمبدأ الاخلاقي ، وتوسلوا بالاخلاق الى كسر انانيــة الفرد ، فاقدم مبادىء الاخلاق الى احدثها تستهدف هذه الغاية، ولكنها فشلت في مهمتها وبلغ من فشلها حين اتخذت وسيلة لتحطيم الانانيات انها مست بعدواها، فبرزت الانانية في الاخلاق نفسها ، وغدت فضائل المبدأ الاخلاقي مجموعة انانيات فردية لئيمة .

والذي يفيدنا من هذا في تكوين الحس الوطني هو ان نصنعه صنعاً اجتماعياً خالصاً ، وان نتأتى باستخدام التربيــة الى تحويل فكرة الفرد من الخلود في الاسرة الى الخلود في المجتمع .

الخضوع لافكار رجعية بفاعلية الانتخاب الصناعي

من الخير بادىء ذي بدء ان نتأتى الى شرح ما يعنى بالانتخاب الصناعي في حقل العمل الاجتماعي ، هذا الانتخاب الذي تحكـّم بأثره السيء في اكثر ادوار التاريخ ولا يزال يتحكم به .

الانتخاب الصناعي يعني تغليب فكرة والعمل على سيطرتها بالعنف الخارجي والداخلي ، من قبل افراد او طبقة او هيأة ، فالفكرة التي يحملها المستعمر وتتم لها الغلبة ليست هي الاصلح لأن غلبتها وان تمت بصراع بين فكرين فقـد اختارها العنف الخارجي وهو انتخاب صناعي .. والفكرة الاتوقراطية مثـلاً ليست هي الاصلح لان غلبتها تمت بالعنف الداخلي من قبل فرد وهو انتخاب صناعي .. والفكرة الارستقراطية ايضـاً ليست هي الاصلح لان غلبتها تمت بالعنف من قبل طبقة وهو انتخاب صناعي.

وهذا الانتخاب [1] يدخل في مختلف عمل الفكـر البشري كالاخلاق والقانون والتربية الخ ..

نعم انا لا اقول ولا اود ان اقول : ان الانتخاب الطبيعي في الفكرة وما يلابسه ويتصل به ، لو ترك له عمله لا نتخب الفكر الاصلح مطلقاً ، فانه اي الانتخاب الطبيعي محكوم بالنشوء ، ولكن لا بد من ان ينتخب دائمـــاً الفكرة الاصلح نسبياً في الزمن والموضع والدرجة النشوئية ، اي ينتخب على الدوام الفكرة التي لا رجعية فيها والتي هي الاصلح للكائن في الزمان والمكان .

لا شك في ان الثورة الفرنسية كانت مثالاً لما نعني من تنازع البقاء بين الافكار التي جرت الكائن الى ميدانها ، فنشبت الثورة بين الجماعات التي دخلت اخيراً في طور استسلام للفكرة المختارة بواسطة الانتخاب الطبيعي.. وعلامة الفكرة المنتخبة طبيعياً أن تحدث في النهاية اطمئناناً عاماً اليها ، حتى عند من حاربوها .. على اننا لو فرضنا ان حزب الملك اذ ذاك كان يملك القوة الكافية لاخضاع الشعب الهائج ، وفرض فكرته ولم يتغير النظام ،فان غلبتها تكون قـد تمت بواسطة الانتخاب الصناعي فقط ، ولا يمضي زمن حتى تتأزم الحياة الاجتماعية وتتعقد ثانية في صراع آخر الى ان تتحكم الفكرة المنتخبة طبيعياً .

ويظهر من هذا ان ما نشهد اليوم من تخبـــط عنيف في الفكر والأوضاع ولا سيما عندنا ، سينتهي حتماً بتركيز أصلح لا محالة نتيجة للانتخاب الطبيعي المحض .

ان قيمة الحلول ليس في انها تمـلأ فراغ الفكر وتحفـــل بالآراء بل قيمتها في مقدار صلاحيتها واتصالها بالكائن في الزمان والمكان ، كالدواء الذي لا تكون قيمته في انه عقاقير مركبة فقط بل في انه عقاقير صالحة لنوع المرض وصفة الجسد المريض.

وفي العالم من وراء الأشكال والمظاهر رجعية منكرة في الفكر والعمل ، فالفكرة الاستعمارية أو التدخلية ، والتحاجز الروحي بين الشرق والغرب واشباهها من القضايا الكثـــيرة تظهر كمثل الطوابع الثابتة . وكان لهـذه الرجعية العالميـــة المسيطرة على الأفكار العامة آثار اذكت حركة التبلبل الوبيل

(١) انظر التفصيل في كتابنا «دستور العرب القومي» المطبوع سنة ١٩٤٢

وساعدت في قوة التيار ومده المستطيل .

والذي يفيدنا من هذا داخل نطاق الحس الوطني هـو ان نطهر المجتمع من كل فكرة رجعية تلقيَ به في اتون حـامٍ من التنازع والاختلاف فيما بين فئاته وجماعاته ، وان نبتعـــد في قوانيننا وأوضاعنا ماشئنا وشاء لنا استعدادنا عن تحكم الانتخاب الصناعي في أي شيء .. وان نطلق الرأي حريته القصوى مع التأكيد على ان حرية الرأي لا تعني ابداً حرية الاختلاف ، فإن المطالبة بحرية من هذا النوع معناها المطالبة بحرية التأخير والعرقلة .

إن الحرية على ما نفهمها هي افساح المجال للاختيار وجعـل الاختيار حقيقياً وعملياً ، وليس معناها المقدرة على الاستمرار في الاختيار .. بـــل نعني ان تأتي عمليتها في الشكل التالي : البحث والجدل الحر ، القرار ، التبديل العملي ..

واخيراً يتحتم علي ان ارسم ملامح حسنا الوطـــني الخامر اليوم بمسّات سريعة أشبه بضربات ريشة لا تقصد الى التصوير بمقدار ما تقصد الى التعبير :

الشعب كله يحس ويتحدث عن الأوضاع الظالمـــة ، عن الجوع ، عن الخراب الشامل الذي يأخذ الحياة من شتى مرافقها ، عن هذا الاستبداد الذي تستحكم حلقاته يوماً بعد يوم ، وهـو اينما يتلفت حوله يجد اعداءه متربصين به متآمرين عليه ، هؤلاء الاعداء هم الذين عصفوا بماضي الشعب وهم الذين يتهـــددون مستقبله وينغصون حاضره ويفرطون بأقدس امانيه وأماناته .

الشعب كله مجمع عـلى ضرورة التغيير ، والشعب كله ، كما يبدو ، على استعداد لبذل التضحية من أجل هـذا التغيير .. ولكن هذا الاجماع وهذا الاستعداد ، بل وهذا البذل ، ليست تكفي كلها لاحداث التغيير المنشود ولا لسحق الأعداء .

إنما يجب ان نجمع مـلايين الساخطين ونرسم لهم الطريق . ان السخط وحده لا يزيل الظلم ، والبذل إن لم يرشده ويوجهه العلم والوعي الصحيح فلا جدوى منه ، بل لا يستبعـــد ان ينقلب نفعه إلى ضرره . إن كنا نريد أن نزيل الظلام من حياتنا فلنبحث عمن هم أعداء الشعب ولنرسم طريقنا لتخليص مجتمعنـا منهم ... مجتمعنا نصف استعماري ونصف إقطاعي ، والجماهير في حربها اليوم تريد ان تعرف دور كل عدو من اعدائها ومدى علاقاته بالاعداء الآخرين .

نعم إن ذلك الحس الوطني السامي المتصاعد ، وإن ذلـك الوعي الشعبي المترابي ، الذي أحس الآن بانه يتجسد في طـلة تباركنا ، ثم أحس به يتنفض ، وهل عرفت الزلزال الذي هو مخاض الارض لتضع هنالك البركان ، فانه حكايته .. أقول ان الحس الوطني الذي ينتظم جماهيرنا هنا وهناك يقرر في قطع بان الاستعمار اصيب بالجنون : يوم أسقط من حسابه كل قيمة إلا للضراوة الوحشية ! ثم هو يقرر في قطعٍ كذلك ان السياسـة العربية أصيبت بالجنون ايضاً : يوم ذهبت بكل اقدارها دائرة في تيار عجلته ، ويوم وهبت نفسها للشيطان . ألا من يخلص السياسة العربيـة من جنون المستعمر ، أو من يخلص الشعوب من جنون هذه السياسة ؟

الاستعمار ومشاريع الاستعمار نحن نبرأ منها ، وهذا أمر مفروغ منه ، وما أشك في ان الطريق التي تتخذها الينا تهبط من فوق الى تحت ، فلنبدأ إذن من رقبـــات الجسور ، من الدروب ، من نقاط الارتكاز ، ليكون عملنا مقبولاً في محراب الوطن لا مدخولاً بموهاً ولا معللاً بالجبن الرعديد ... وقـديماً قيل : درهم وقاية خير من قنطار علاج ... نعم البـراءة من مؤسسات الاستعمار في الداخل هي البراءة .

ينبغي الانلتمس الجد من جامعة وحكومات ومن منظمات ولجان ، ونحن ان فعلنا فلن نصيب الا الجهـد العابث .. خير لابصارنا ان لا تتعلق تلك الكوى الرسمية التي لا يلتمس منها النور ، ولا تهبّ الا بريح عفنة إن لم تخنق فلا اقل من ان تمس بالزكام .

ان ما نفتقده على الحقيقة ، ليس خـارج اوعيتنا المقدسة ، وعبثاً نفتش عنه خارجها ، انـه في تصميمنا حينما نفرغه عزماً في العمل .

انهم هناك في الدواوين الرسمية ابناء سدة عاليـــة ورفرف ارفع .. وابناء السدة اذا بنوا فإنما يبنون بمهارة من فوق ، ويقيمون الاهرام على رأسها لا على القاعدة ، ولكن هيهات لها ان تتوازن فلا تسقط !

اما نحن المشدودين الى الارض ، فعذرنا واضح اذا لم نحسن الا اقامة البيت على اسسه ، ورفع البناء على قواعده ، اي كما هدى الله وقدر المنطق وعلّم الفن .

ولعل من تحصيل الحاصل ، القول انه لا يعنينا ان نعرف كيف يفكرون هنـاك ، فلهم لجانهم ومنظماتهم ولهم احابيلهم وحبائلهم ، بمقدار ما يعنينا ان نتجرد للعمل شاعرين بامـــانة مزدوجة : بعضها تراث الاجداد ، وبعضها حق الحياة لنا وللاحفاد .

عبد الله العلايلي